

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 15 (2011) : 182 - 188
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

الصحراء كفضاء للترحال
مقاربة سوسيو أنثروبولوجية للبدو الرحل

جيلانـي كوبيبـي معاشو
جامعة معسكر

تمهيد

إن ارتباط الإنسان بالمكان كفضاء اجتماعي يعيش فيه يعد خاصية كونية تتميز بها كل شعوب العالم ولأن الإنسان كائن حي يتفاعل مع ما يقتضيه منطق المحيط البيئي والثقافي الذي ينتجه ويساهم في تأطيره بطريقة من طرق الإندماج داخل هذا النسق الحيوي العام باعتباره فاعلا مباشرا في تأطيره، لذلك حري بنا أن نتساءل عن طبيعة الاستقرار النفسي في اللاإستقرار الاجتماعي لرجل الصحراء من خلال مقاربة سوسيوأنتروبولوجية للبدو الرحل بصحرائنا الواسعة الأرجاء، خاصة وأن نمط الحياة قائم على التنقل الدائم للإنسان.

1-الصحراء كموضوع للبحث:

نحاول في هذه المداخلة الوقوف بشكل من أشكال المقاربة على بعض النقاط الأساسية المتعلقة بإشكالية الترحال وحتى بتلك المتعلقة بحالات الإستقرار السوسيولوجية عند البدو الرحل بالجنوب الجزائري لمساءلة هذا النوع من أنواع الوضع الإجتماعي الذي يبدو لنا في شكله الظاهري وضعا ثابتا ومستقرا من حيث المحافظة وبطريقة متميزة عند هؤلاء على الثقافة الذاتية، في حين أن نفس الوضع يواكب مختلف التغيرات العامة التي يعرفها ويعيشها المجتمع الجزائري.

لذلك فإن رجوعنا إلى الأسباب التي تقف وراء ظاهرة الترحال قد تحدد في جملة من النقاط الأساسية، لكن محاولة الوقوف على أهم النقاط الثقافية المتعلقة بالبناء العام لمثل هذه التشكيلات سيكون بمثابة المحفز الحقيقي لهذه القراءة وسيكشف لنا حتما ما نريد البحث والتنقيب عنه.

لذلك كان لأعمال المهتمين بالمجتمع الصحراوي الفضل الكبير في هذا المسعى خاصة أولئك الذين عايشوهم وفهموا أنثروبولوجيا معنى الفعل الإجتماعي عندهم وعلى الرغم من قلتهم وانحصار أعمالهم على أهداف استراتيجية ارتبطت بالإستعمار في الفترات التاريخية المعروفة من القرنين الماضيين، إلا أن ما ذهب إليه البعض الآخر من فهم وتفسير لخصوصية المجتمع الصحراوي من أبناء هذا الوطن لغرض ربطها بمسارات التنمية المختلفة التي عرفتها

الجزائر على مستوى الصحراء الواسعة أو لغرض الخاصية العلمية التي تتميز بها مجتمعات اليوم كيفما كانت معقدة أو مركبة أو شمولية وكمثال على ذلك القراءة السوسيولوجية والتحقيقية التي استبطنت المجتمع الصحراوي والتي تقدم بها الأستاذ الباحث الجزائري الدكتور محمد السويدي حينما حاول تشريح واقع المجتمع الجزائري في كليته، من خلال مسايرته لبعض مظاهر التغيير بالإضافة إلى ذلك طبعا قصدنا من خلال كل هذا إستثمار مختلف الملاحظات التي عرفناها مباشرة عن أفراد المجتمع المقصود أثناء احتكاكنا بهم أو من خلال متابعة يومياتهم الموسمية التي تلزم فئات كثيرة منهم النزوح نحو الشمال في فصل الصيف، على أن نتناول عينتين منهم على الأقل للإحاطة بالموضوع قدر الإمكان.

2-الترحال عند بدو الأرباع:

قبل أن نتطرق بالحديث عن بدو الأرباع يجب أن نعرف مسبقا بأن طبيعة الحياة الإجتماعية في الصحراء عامة تتميز بخاصية التضامن الآلي بلغة إيميل دوركايم السوسيولوجية التي وضحها بالتحليل النظري في مؤلفه التقسيم الإجتماعي للعمل، هذا إذا ما نظرنا إلى السياق العام للمجتمع في شكله الظاهري الذي يتقاطع مع النسق الثقافي للهوية الذاتية لكن ذلك لا يجعلنا بأي حال من الأحوال ننفي جملة التحولات التي جلبها التغيير الاجتماعي أو التي رسخها النظام الإيكولوجي والإقليمي المصاغ، من خلال الإحتكاك والتفاعل مع الأجناس الصحراوية والجهوية الأخرى، وكذا من خلال ما رسمته الدولة من تحولات تنموية عامة مست المكان وغيرت أسلوب الحياة، ولعل في ذلك رؤية سوسيولوجية أخرى يكتبها ميشال كروزييه حين يحدد المعالم الأساسية للمجتمع المغلق ودون أن نقصد هنا المجتمع التارقي كنموذج لذلك، نود أن نقف عند بدو الأرباع الذين ينحدرون من مجموعات بدوية نستطيع تسميتها بالعروش والتي تعود أصولها الأولى للهلاليين وتتمثل في القبائل البدوية التالية: (العمامرة – الحجاج – أولاد زيد – أولاد صالح...) ونظرا لأنها اجتماعيا عانت الصراع مع قبائل أولاد جلال إنحدرت نحو الأغواط أين ضمت إليها قبائل جديدة إلى عروشها ولأنها تكتلت بالمنطقة فإنها أصبحت فعلا قوة اجتماعية، ويتميز نمط حياتها بأسلوب منفرد جعل التنظيم الإداري يخضع لذلك، ففي مواسم الترحال التي تطول لشهور يتنقل هؤلاء البدو ك "عشابة" باحثين عن العشب لماشيتهم في الهضاب وفي بعض مناطق الشمال خاصة، ولعل ما يثير الإنتباه في هذا الشأن أنهم ينتقلون جماعات جماعات آخذين معهم كل شيء، خيامهم ماشيتهم أزواجهم وأبناؤهم... ثم يحطون الرحال بأماكن الكلأ والتي تكون عادة مراعي كافية لأنعامهم التي تسرح بها، ودون أن يحتاج فلاحوا هذه الأراضي إلى الأسمدة الكيميائية يجدون في بقايا المواشي فائدة لأراضيهم في مواسم الفلاحة القادمة.

ولعل ما يلاحظ عليهم سلوكاتهم البدوية التي يتعاملون بها فيما بينهم ومع من وهب لهم

الأراضي على شكل كراء للرعي. إننا إذا ما أمعنا النظر في لباسهم وفي كرمهم وطريقة أكلهم يمكننا أن نؤكد بأنهم فعلا يعيشون الإستقرار النفسي رغم اللاإستقرار على مستوى البقاء والتمسك بالمكان، وحتى تكون لهاته الفئات العريضة من المجتمع كافة الحقوق والواجبات كمواطنين جزائريين أخذت الدولة على عاتقها كل ذلك، حيث توجد بلديات رسمية تنتقل معهم وتحل حيث يحلون فقط لتسجيل حركيتهم الإجتماعية على جميع المستويات كتدوين حالات الولادة والوفاة والزواج وإحصاء عددهم لتأكيد مشاركاتهم الصحيحة في مختلف الإستحقاقات الإنتخابية، إن انتقال هؤلاء البدو إلى الشمال لا يقتصر فقط على الماشية فهناك من يحترف منهم تربية الإبل أو الماعز ولأن هذه الأنواع من الأنعام تحتاج إلى العلف والماء وجب على مربيها إيجاد الحلول لذلك خاصة وأن أماكن إقامتهم الأولى يتراجع فيها مردود العشب والكلأ في فصل الصيف، وتجف الآبار التي يمكن أن نجدها متتالية في نظام التباعد عن أماكن التواجد الأولى، حيث يوجد بئر في مكان يصلح فيه التوقف قبل مواصلة السير نحو الأمام ثم يوجد آخر إلى غاية بلوغ المكان المقصود.

يعتبر بدو الأرباع من أكثر البدو تنقلا في الجزائر ومن أكثرهم عددا إذا ما قيسوا بغيرهم لذلك يرتكز التصنيف الأنتروبولوجي على تنقلات البدو من حيث المكان والزمان ونظام التنقل بينما يوضحه الباحث الجزائري محمد بوخبزة ويصنفه حسب كمية الأمطار، إذ هناك البداوة الرطبة (أكثر من 300مم)، والبداوة الجافة (أكثر من 100 مم وأقل من 300 مم)، والبداوة القاحلة (أقل من 100 مم). ("Mhamed Boukhoubza" .1974) ونسبة لذلك كله بلغ عدد هؤلاء البدو سنة 1948 حوالي (22000) نسمة و(5500) نسمة من أنصاف البدو غير أن عددهم لم يتطور إل بنسبة ضئيلة خلال إثنتي عشرة سنة، حيث وصل عددهم سنة 1965 إلى حوالي (22800) نسمة، أما في سنة 1966 وحسب أول إحصاء سكاني رسمي جرى في الجزائر بعد الإستقلال فقد أثبت أن مجموع عدد السكان الذين تشرف عليهم بلدية الأرباع من البدو وسكان القرى الصغيرة من أنصاف البدو بلغ حوالي (22498) نسمة (محمد السويدي. 1984. 168) ووقوفا على حالات الغبن التي يعيشها هؤلاء أخذت الدولة على عاتقها ذلك بتدبير سياسي حكيم يقتضي الحد من نزوحهم نحو المدن التي يصعب عليهم المكوث بها فكانت هناك مخططات خاصة بهم إقتضت إنشاء وبناء قرى فلاحية محاذية للمراعي مع تفكير جيد للمجال الحيوي الذي سيعيشون به من أجلهم ومن أجل أبنائهم، لذلك تميزت القرى الفلاحية التي استوطنوها بتواجد المدرسة والمسجد والمركز الصحي ومركز الأعلاف. ومما تجدر الإشارة إليه أنه من القرى التي بنيت في هذا الصدد والتي فاق عددها الستين قرية: قرية الناصر بن شهرة التي ينتمي جل سكانها إلى بدو الأرباع الذين فاق عددهم 90% أي 108 منزل من بين 120 والذين تخلى أكثر من نصفهم عن الممارسة الرعوية والفلاحية وينطبق ذلك طبعا على القرى الأخرى التي

توزعت على عشرة ولايات مثلما يبينه الجدول التالي:

الولاية	قرى فلاحية رعوية	قرى رعوية
أم البواقي	4	
المدية	4	
البويرة	10	
تيارت	13	
سعيدة	13	
سيدي بلعباس	8	
تلمسان		1
تبسة		2
المسيلة	6	
الأغواط	2	
المجموع	60	3
المجموع الكلي	63	

عملية التوطين وإسكان هؤلاء البدو هي عملية إنشائية متكاملة تتضمن إحداث تغيير في الظروف الطبيعية والحضارية القائمة بهدف تنمية الموارد البشرية والإقتصادية ورفع المستوى المعيشي وتحقيق التكامل الوطني عن طريق إدماج المجموعات البدوية ذات الحضارة الرعوية التقليدية بصورة جماعية في الوحدة السياسية والقانونية والإقتصادية والفكرية للمجتمع الكلي. (محي الدين صابر. 1966. 42) نلاحظ إحصائيا أن مثل هذه التحولات تحيلنا في حقيقة الأمر إلى جملة المتغيرات المتعلقة بحياة هؤلاء البدو، فالإستقرار المخطط له كان نتيجة لسياسة تنموية رشيدة تهدف إلى توفير شروط الحياة في أماكن العيش الجديدة والدائمة، لكن ذلك لا يمنعنا أبدا من معاودة النظر إلى حقيقة الظاهرة السوسيولوجية ويكفينا على وجه المقارنة بلدية الأرباع ببلدية الأغواط من حيث السكان فإحصائيات النمو الديمغرافي سجلت نسبة بسيطة جدا من السكان على مستوى البلدية الأولى مقارنة بالثانية، لكن على مستوى الإقليم الترابي العكس هو الصحيح ويتمثل ذلك في كون غالبية سكان بدو الأرباع يعتمدون على تربية الأغنام وفي سبيل أغنامهم ينتقل حوالي 70% منهم موسميا رغم أن المساحة الإقليمية لبلديتهم تفوق المليون هكتار ورغم توطين عدد كبير منهم بالقرى الاشتراكية إلا أن عددهم فاق المئة وعشرين ألف نسمة

(120000) خارج مجال هذه القرى موزعين على مساحة تقدر بـ 14 مليون هكتار من المراعي الجيدة والفقيرة. (Mhamed Boukhoubza، 1974) ورغم أنهم يعتمدون مناخيا على أمطار الشتاء ومياه الآبار والعيون على ضفاف بعض الأودية، إلا أنه يمكننا أن نستخلص سوسيولوجيا أنه مادام الإنتقال الممثل لهؤلاء يتواصل على مدى الحياة فباعتباره انتقالا كليا أو كميا، فإن الخصائص الثقافية والسلوكات الاجتماعية تبقى هي هي، لأن هؤلاء الأفراد ليست لهم استعدادات التكيف مع الآخر في الضفة المهاجر إليها لأن مفهوم الإستقرار لا يوحي لهم بالتغيير الشامل لنمط الحياة البدوية كما ذكرنا سابقا فهم مستقرون حسب نمط معيشتهم الخاصة، خاصة إذا أخذنا تصورهم للمكان بعين الإعتبار لأن المدى الجغرافي الذي يمارسون فيه بقاءهم ويعتمدونه لحياتهم ولحياة ماشيتهم أفسح بكثير مما يتصوره سكان القرى والمدن. (محي الدين صابر. 1966. 43) والدليل على ذلك أن الفئات القليلة جدا من هؤلاء البدو وفي شكل نوعي ضئيل عندما غيرت وجهتها الجديدة وانتقلت دون رجعة إلى حواضر أخرى بحثا لها عن عمل أو سعي منها في استثمار أموالها بطريقة عصرية حديثة، فإنها سكنت الفيلات الضخمة وغيرت من أسلوب حياتها إزاء تربية أبنائها، هذا بالنسبة للفئة الميسورة منها بينما بالنسبة للفئات الأخرى فإن قرارها كان الغرض منه السعي نحو الإندماج الإجتماعي مع الآخر وهذا خلافا لأسلوب الحياة العتيق الذي عرفوه مع ذويهم وفي مجتمعهم، لكننا إذا ما أحصينا العدد الإجمالي الحقيقي لهاتين الفئتين نقول بأنها نوعية تمثل ربما 5 إلى 10% من فئات المجتمع المعني بهذا الشرح.

3- الطوراق والنسق المغلق:

لا تختلف السيرة الحياتية لبدو الطوارق منها عن حياة بدو الأرباع وذلك من حيث الترحال والتسوق، لكنها تسجل خصوصية إثنية منحصرة فيهم، لذلك ذهبنا إلى تشبيهها بمثل ما وضحه لنا ميشال كروزييه عندما حلل مفهوم المجتمع المغلق. وقد كان ابن خلدون سباقا إلى تصنيف أنواع البدو عندما وضعهم في مستويات ثلاثة تبعا لدرجة ظعنهم وبعدهم عن الحضارة، فهناك البدو الذين يعتمدون على الإبل في معاشهم، ويطلق عليهم ابن خلدون اسم "الأبالة" أي رعاة الإبل، ويليهم في الترتيب "الشاوية" أي أصحاب الشاة، وهم رعاة الضأن وقد وضع معهم على نفس الدرجة "البقارة" أي رعاة البقر، ويأتي في أسفل السلم الممتهنون للزراعة، وهم الذين مارسوا نوعا من أنواع الإستقرار في الواحات وحول الآبار والوديان أو عند المراكز الحضارية القريبة. (صلاح مصطفى الفواز. 1974. 163) ويبرز اختلاف الطوارق عن بدو الأرباع عند الترحال في كونهم يتميزون بخاصية ابقاء المرأة وبناتها بالخيمة في كل الأحوال وينتقلون هم وأبناؤهم في قوافل خلال شهري أفريل ومايو في رحلات بين 600 كم و800 كم أي أنها تصل إلى 1600 كم بين الذهاب والإياب وتضم قوافلهم عدة مئات من الجمال قد تصل إلى 4000 جمل تشترك في عملية نقل الملح . (Gaudio Attitio. 1967. 91) ومنذ السنوات الأولى يتدرب الطفل

التارقي على التحكم في صناعة بعض الأشياء المتعلقة بالتنقل مع أبيه في رحلاته الطويلة التي قد تكون نحو السودان وموريتانيا والنيجر ومالي ... ومن بين ما يلاحظ على المجتمع كذلك وفي باب تنشئة الأبناء والبنات أن المراحل الحياتية للأطفال لها معنى معين، يتداوله المجتمع التارقي حفاظا على نسقيته الثقافية، فاحتفالا بالأبناء مثلا عند بلوغهم السادسة عشر من العمر بمنحهم اللثام كدلالة على الرشد والرجولة ويعززه حملهم للسلاح المحمول تهيئة لمختلف التنقلات الشاقة التي تتميز بحمل الوسائل والأدوات والأغذية التي تؤخذ في رحلات بعيدة خاصة نحو الجنوب أو بالأحرى نحو المناطق الإفريقية المحاذية من أجل المقايضة بأغذية وألبسة يحتاجونها خلال السنة وهذا ما يؤكده (كلود بلونج بلونجرنوف) الذي يرى أن بدو الطوارق –على سبيل المثال– لا يتبعون مقتضيات الهجرة بمعناها العلمي، لأنهم في فترة الجفاف يرحلون بمواشيهم نحو المراعي الخصبة في مالي ونيجر، في حين يتركون وراءهم الخيام وقطعان الماعز في منطقة الهجار، أي في مواطنهم الأصلية، مما يدل أن الطوارق كبدو هم من أكثر سكان الصحراء تنقلا، ولكنهم ليسوا بأكثرهم هجرة (.**Blanguer non Claude** , **97,1965**)

وتتهيأ المرأة التارقية من جهتها ومنذ نعومة أظافرها لمهمتها الأساسية كعضو فاعل في المجتمع إعتبارا لأنها تنوب الرجل وتتدبر بعده الحياة الخاصة بها وبعائلتها، المهم أن نظام حياة التارقية الذي يتميز بخاصية التضامن الإجتماعي والتراحم بين أفراده وكذا الإيثار والإكثار من الكرم ما يجعل الطبيعة البنيوية تتميز بخصال الحياة الحضارية الجادة التي حثنا عليها الدين الإسلامي خاصة وأن إيجابيات التعاون التي أشرنا إليها تقضي على الفقر والتسول تماما وتنبذ السرقة، وتجعل من شمات أهل التوارق أمة كريمة، رغم أننا ننظر إلى هذا المجتمع على أساس أنه يعيش عزلة عن العالم الخارجي لأنه رغم التغيرات العامة التي يعرفها الكون يبقى محافظا على قيمه ويعيد إنتاج سلوكاته الحياتية رغم أنه يواكب الحياة العامة للمجتمع الكبير لكن بطريقته التي جعلنا نثني عليه خاصة وأن طبيعة الاحتكاك تبقي على قوة الشخصية الثقافية للمجتمع.

الخاتمة:

إن ما يمكن تسجيله عن الحياة العامة للبدو الرحل بصحرائنا الواسعة أنها وبكل بساطة تتميز بخاصية الوفاء لمسيرتها الثقافية والتربوية، فصغر الكثافة السكانية وشساعة الإقليم الإجتماعي، لم يكونا أبدا مانعا أمام التحديات الخارجية، لأن صلابة التكوين البنيوي أعطت القوة الكافية لإظهار الخاصية الثابتة في التعبير عن الهوية الصحراوية التي كانت ولا تزال في نطاقها المعرفي الذي يتفق عليه جل الباحثين على أن الصحراء عامة والبدو الرحل الذين يعمرونها خاصة يخضعون فعلا للتغيير الشامل على مستويات محددة، كمسايراتهما للثورة الصناعية جراء الثروة الطبيعية التي تزخر بها باطن الصحراء ولأن أبناءها يعايشون مثل هذه الحركية فإننا نجد من

سانحهم الحظ من خلال فرص العمل في آبار البترول ومؤسسات تكرير المحروقات الذين يشغلون مناصب عمل، فإننا نجدها تحدد حتما هويتهم أو هيكلهم ومكانتهم الإجتماعية، فالبدوي كحارس أمين عرفته الصحراء بشهامته في ذلك، وجدناه كذلك في مؤسسة العمل كحارس ليلي أو كسائق لشاحنة أو لسيارة عمل باعتباره يتقن فن الترحال ويصبر عليه ويعرف خبايا الصحراء والترحال.

المراجع:

1- محمد السويدي "1984" مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري. تحليل سوسيولوجي لأهم مظاهر التغيير في المجتمع الجزائري المعاصر . ديوان المطبوعات الجامعية.

2- محي الدين صابر "1966" التوطين ومشروعاته. سرس الليان

3- محي الدين صابر "1965" عوامل التغير الحضاري في نمط الحياة البدوية. بحث في الأمانة العامة لجامعة الدول العربية (رعاية البدو وتحضيرهم وتوطينهم). القاهرة.

4- صلاح مصطفى الفواز "1974" علم الاجتماع البدوي. القاهرة دار نافع للطباعة.

5- Blanguer non Claud "1965". le Hoggar, Paris

6- Gaudio attitio, "1967", les civilisations du Sahara. Paris. Marabout université.

7- Mhamed Boukhoubza, "1974", « Eléments sur les structure socio-économiques de l'Algérie à travers l'étude de leurs désarticulation par le développement du capitalisme.- durant la période coloniale ». In 24ème congrès international de sociologie, Alger.

8- Mhamed Boukhoubza, « nomadisme et crize de la société pastorale en Algérie » , In actes du colloque international de l'institut de recherches méditerranéennes « élevage en méditerrané occidental ».